

دراسات حول بعض اللاهوتيين العرب:

أبو الحسن بن المحرومة

(كتاب "حواشي ابن المحرومة" للمطران حبيب باشا، سلسلة التراث العربي المسيحي رقم ٦، ١٩٨٤).
(نشرة "رعيتي" عدد...).

أبو الحسن بن إبراهيم بن يعقوب بن نختوما الحَبَّاز بن المحرومة هو كاتب مسيحيّ من ماردين (شمال سورية).

في أي قرن عاش ابن المحرومة؟ يؤكد البطريرك بر صوم انه كان في قيد الحياة في كانون الاول ١٢٩٦، وذلك استناداً، على ما نظن، الى التاريخ المثبت في "كتاب الوراق" وهو الترجمة العربي لكتاب "الحمامة" لابن العبري، الذي ترجمه ابن المحرومة. واما جورج غراف، فيذهب الى ان ابن المحرومة كتب حواشيه يقينا قبل القرن الرابع عشر، ولا يورد أي تفاصيل اخرى في هذا الشأن.



ثمّة معالم لتحديد الزمن؛ فالحد الادنى هو تاريخ تأليف كتاب "التنقيح"، أي سنة ١٢٨٠، ومن الواضح ان الحواشي قد وضعت حتما بعد هذا التاريخ. اما الحد الاقصى، فهو التاريخ المدرج في مطلع مخطوطة الانجليكا، أي ٢ كانون الثاني ١٣٥٤، ففي هذا الوقت، ابن المحرومة، هو بلا ريب، في عداد الاموات، بشهادة الناسخ مسعود بن ارجوك الماروني، الـ اي يضم في صلاة استرحام واحدة، صاحب التنقيح ابن كمونة (+ ١٢٨٤) وصاحب الحواشي ابن المحرومة، سائلا الله ان "يقلس انفسهما وينور ضريحيهما بعفوه ورحمته".

كل هذا يُعارض رأي غراف الذي يعود بتاريخ كتابة الحواشي ال ما قبل القرن الرابع عشر. هذا ويشير برلمان الذي يُعدُّ ابن الحرومة "من كتاب القرن الرابع عشر" الى ان مخطوطتين من بين المخطوطات التي تتضمن نص "التنقيح" مصدرهما ماردين، وتعود احداها الى سنة ١٣٤١، والاخرى الى سنة ١٣٥٤. وثمة مخطوطة ثالثة ابتاعها صاحبها سنة ١٣٥٢. وكل هذا يدعم تاريخ كتابة الحواشي سنة ١٣٣٣.

هذا التاريخ ينسجم ايضا مع الثوابت التاريخية الاخرى المرتبطة بالنشاط الادبي لابن الحرومة. فالسنة ١٢٩٠ هي السنة التي نسخ فيها الكاتب بالسريانية "كتاب الحمامة" لابن العبري، كما مرت بمبت، والخامس من كانون الاول سنة ١٢٩٩، هو اليوم الذي انجز فيه نسخ مقدمة الترجمة العربية لنفس الكتاب.

استنادا الى هذه الدلالات، يسوغ القول اذن ان ابن الحرومة وُلِد في الشطر الثاني من القرن الثالث عشر، وتوفي في الشطر الاول من القرن الرابع عشر، وكتب الحواشي حوالي سنة ١٣٣٣.

مذهبه

على الأرجح أنه كان سريانيّ المذهب، وبخاصّة أنّ مسقط رأسه، ماردين، كان مركز البطيركيّة السريانيّة بعد نزوحها من أنطاكية. ويؤكد صاحب "اللؤلؤ المنتور" انه كان سريانيا. مع انه في الواقع ومن خلال قراءة نص الحواشي لا تُتيح معرفة مذهب صاحبا، وقد عمد في اسلوبه الدفاعي الى الطريقة المتبعة عموما عند الكتاب المسيحيين آنذاك في مناظراتهم مع غير المسيحيين، وهي اعتماد البراهين المشتركة بين جميع الفرق المسيحية، ومحايده ما يُسْتَم منه التزام بمذهب معين.

وقد اعان ابن الحرومة طريقته هذه في احدى حواشيه: "على اني لا التزم رضى جميع فرق الملة النصرانية، لكنني التزم رضى النصرانية مطلقا لا غير...". (حاشية ٩١ ب). وقد وفي ابن الحرومة بوعده، وظل سالكا في هُججه، فما بدر منه ما يُثبت ارتباطه بمذهب معين من المذاهب المسيحية. الا ان عناك قرائن يمكن اعتمادها لترجيح نسبه الى الكنيسة السريانية. بيد ان تعابيره اللاهوتية هي اقرب الى العقيدة الخلقيدونية منها الى المذهب الاوتياخي. فهو يأبي القول بامتزاج الطبيعتين في السيد المسيح، ويوافق النصارى بجميع طوائفهم، على ان السيد المسيح إنما ساوى الناس بناسوته في جميع احوالهم ما عدا الخطيئة. (حاشية ١٠٦).

نشاطه الادبي

أتقن أبو الحسن اللغتين السريانيّة والعربيّة لغةً وخطاً. واشتهر أيضاً بكونه صاحب الردّ على كتاب "تنقيح الأبحاث للملثالث"، الذي وضعه الفيلسوف اليهوديّ البغداديّ ابن كمّونة عام ١٢٨٠. وأغلب الظنّ أنّ أبا الحسن كتب ردّه، المعروف بـ "الحواشي"، على ابن كمّونة ما بين عامي ١٣٣٣ و ١٣٤٠.

كتاب "الحواشي"

تتألّف الحواشي من ١٣٣ حاشية كتبها ابن الحرومة للردّ على مزاعم الفيلسوف اليهوديّ الذي لم يتجرّد من تعصّبه لبني ملته، فشكك في المسيحيّة والإسلام. يتولّى أبو الحسن في حواشيه الطعن في اليهوديّة والدفاع عن المسيحيّة. فيبدأ بالنيل من سيرة اليهود وأخلاقهم، ويعتبر أنّهم منذ فجر تاريخهم وعبر أجيالهم متّهمون بالكفر برّبهم وعصيان أوامره والتنكر لمعجزاته والانحراف وراء

الأوثان والأصنام. ويعتبر أيضاً أن كثرة "التكاليف" (أي الشرائع) "إنما تحتاجها الأنفس الشريرة التي تمكنت منها الأخلاق الرديئة". ولو كان اليهود صالحين لما كان الله زاد من التكاليف، ولكن لسوء طباعهم قيدهم بالنواهي الواردة في التوراة. لذلك، يقرر ابن المحرومة أنه من نعم الله على البشر أنه أراحهم من حمل أثقال الشريعة الموسوية.



يلجأ أبو الحسن في دفاعه عن المسيحية إلى الطريقة المتبعة عند عموم الكتاب المسيحيين في مناظراتهم مع غير المسيحيين، يهود ومسلمين، وهي اعتماد البراهين المشتركة بين جميع الفرق المسيحية، والابتعاد عن كل ما يشتم منه التزاماً بمذهب معين. لذلك تحاشى بكثير من الحنكة واللباقة مواقع الخلاف بين الفرق المسيحية. وهو ينتهج أيضاً أسلوب التشكي من خصمه والتبرم بجهله والتنديد بتعصبه، والتظلم من تحيزه وتغرّضه، ويجهد في الذود عن معتقده المسيحي بطرائق شتى لا تخلو أحياناً كثيرة من التهكم والسخرية.

ثمة ثلاث مسائل رئيسة استقطبت محور الحواشي، وهي:

١ - نقض السيد المسيح للشريعة الموسوية.

ففي نظر أبي الحسن أن السيد المسيح عندما قال: "إني ما جئت لأنقض التوراة ولكن جئت لأتممها"، إنما عني النقض لا للهدم ولكن لإعادة البناء. وذلك أن المسيح لم ينقض الشريعة الموسوية إلا لتتميمها بإضافة ما أغفلته من شؤون الصوم والصلاة والبعث والمجازاة الأخروية. فالذي يهدم جداراً، على حدّ قوله، ليبني فوقه لا يدعى ناقضاً بل متمماً. ولا يغفل أبو الحسن من التذكير بإلغاء السيد المسيح فريضة السبت، فيقول: "فإن أعظم ما شنع عليه اليهود كان حل السبت، لإثته في سبوت متفرقة فتح عيني الأكمه وأبرأ يد الأشل وأقام المحلل الذي كان ملقى منذ ثلاثين سنة، وأمره بحمل سريره". ويعتقد أبو الحسن أن "السيد المسيح لو تمسك بفرائض التوراة لما كان لليهود إلى قتله من سبيل".

٢ - حقيقة المعجزات المنسوبة إلى السيد المسيح وأصحابه.

أما المبحث الآخر الذي يتناوله أبو الحسن، أي حقيقة المعجزات المنسوبة إلى السيد المسيح وأصحابه، فسببه ادعاء الكاتب اليهودي أن معجزات النبي موسى أعظم وأقل تعرضاً لشبهة الحيلة والتواطؤ من معجزات السيد المسيح. ومن غير أن يطعن ابن المحرومة في معجزات النبي

موسى، نراه يؤكّد على أنّ معظم معجزات السيّد المسيح قد تحقّقت بمشهد من المقاومين والمعارضين، وأنها "عمّت في الأصقاع أضعاف ما عمّته معجزات موسى".

٣- الدفاع عن التثليث والتأثس.

وفي عقيدة التثليث، يجتنب أبو الحسن، في الدفاع عنها، الخوض في تفاصيلها اللاهوتية، إذ يعتبر أنّ المسيحية تشتمل على وجوه من المعتقد تتجلّى فيها "حكمة الله الخفية عن عقول العقلاء من البشر، بل عن الملائكة المقربين". أمّا وحدة الجوهر الإلهي فهي معتقد مسيحيّ "يجمع عليه جميع النصارى على اختلاف فرقهم". ويؤكد أبو الحسن على ألوهة السيّد المسيح، وذلك ردّاً على ادّعاء ابن كمّونة بأنّ موسى أعظم شأنًا من المسيح "لأن الله كلّم موسى مراراً لا تحصى، ولم يكلم ولده وحبّيه إلا مرّة واحدة". على هذا يجيب أبو الحسن قائلاً: "إنّ المخاطبة تكون لمن بينه وبين المخاطب حجابٌ يستر عنه الأمر المخاطب به. ونحن لا نعتقد أنّ بين السيّد المسيح وبين الله حجاباً، وإلاّ لتكرّرت المخاطبة مراراً عديدة".

يبدو أبو الحسن ابن المحرومة من خلال حواشيه على نصّ "التنقيح" للفيلسوف اليهوديّ ابن كمّونة بارعاً في الجدل وصياغة البراهين والحجج والأدلة وقوّة المنطق، ويبدو أيضاً أنّه عالم بالكتاب المقدّس بعهديه العتيق والجديد وبالتفسير. ومع أنّه مارس في أحيان كثيرة التهكم والسخرية من آراء خصمه المتوفى حين كتب ردوده، غير أنّه يخلد، في الخاتمة، إلى الهدوء في مخاطبة خصمه، فيقول: "يجب علينا، نحن معشر النصارى، أن نسأل الله تعالى في غفران ما بدا من هذا الرجل في حقنا وبما أكال علينا وغالطنا في كتابه هذا".

وأما قوله - إني ما جئتُ لأنقضَ التوراةَ ولكن جئتُ لأتممها -
فالمرادُ منه أن التوراةَ وُعدتْ فيها مجيءُ المسيح ، والشرائعُ التي فيها إنما يُلتمزُ
العَمَلُ بِجَمِيعِهَا إلى حينَ ظهورِهِ ، لا إلى الأبدِ ، أو إلى يومِ القيامةِ .
فحيثُ ظَهَرَ فَقَدْ كَمَلَتْ بِتَجَاوِزِ الوَعْدِ بِهِ أَوَّلًا وبِكَمَالِ التَّكْلِيفِ بِهَا ثَانِيًا .

حاشية ١٢٥ أ - وأجودُ من هذا الجوابِ هو أن يُقالَ : إن كلَّ شيءٍ ناقصٌ فإنه
يَحْتَمِلُ التَّكْمِيلَ ؛ ولا شكَّ في نَقْصَانِ التوراةِ لأنها ما جاءَ فيها الصومُ ولا
الصلاةُ ، ولا بقاءُ النفوسِ بَعْدَ المَوْتِ ، ولا البعثُ والنشورُ ولا المُجَازاةُ
الأخرويةُ ولا الجنةُ ولا النارُ . فالسَيِّدُ المَسِيحُ تَمَمَهَا بِذِكْرِ هَذِهِ الأَشْيَاءِ
وَأَمْثَالِهَا . وَمِنَ الظَّاهِرِ أَنَّ ذَلِكَ تَتِمِيمٌ^١ لا نَقْضٌ^٢ . وَمَن تَوَهَّمَ أَنَّ ذَلِكَ
نَقْضٌ^٣ فَقَدْ غَلِطَ بِسَبَبِ اخْتِلَافِ مَعَانِي لَفْظَةِ النَقْضِ . وَمَعْنَاهَا هَهُنَا إِنَّمَا هُوَ
بِمَعْنَى اسْتِعْمَالِهَا فِي الجِدَارِ . فَإِنَّ الجِدَارَ إِذَا لَمْ يَبْلُغِ التَّمَامَ ، فَإِنَّ الإنسانَ
الَّذِي يَهْدِمُ مِنْهُ شَيْئًا لا عَلَى سَبِيلِ التَّوَطُّيَّةِ لِمَا يُرِيدُ بُنْيَانَهُ عَلَيْهِ ، يَصْدُقُ عَلَيْهِ
أَنَّهُ قَدْ نَقَضَ الجِدَارَ . أَمَّا إِذَا بَنَى الإنسانُ فَوْقَهُ مَا يُبَلِّغُهُ الغَايَةَ المَقْصُودَةَ مِنْ
بِنَائِهِ ، فَلَا يَصِحُّ القَوْلُ بِأَنَّ ذَلِكَ البَانِي قَدْ نَقَضَ الجِدَارَ ، لَكِن يَصِحُّ القَوْلُ
بِأَنَّهُ تَمَّمَهُ . وَبِهَذَا الاعتبارِ قَالَ السَيِّدُ المَسِيحُ : « مَا جِئْتُ لِأَنْقُضَ التوراةَ
ولكن جئتُ لأتممها » .

ب - فَإِنْ نَازَعَنِي مُنَازِعٌ أَوْ عَارَضَنِي مُعَارِضٌ فِي هَذَا التفسيرِ ، وَقَالَ : إِنَّ
التوراةَ أَمَرَتْ بِالْيَمِينِ بِاسْمِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَأَمَرَتْ بِحِفْظِ السَّبْتِ ، وَالسَيِّدُ

(١) تَمِيمًا .

(٢) نَقْضًا .

(٣) نَقْضًا .

المسيح نهي عن اليمين مطلقاً، وظهر عليه حلُّ السبت، وهذا نقضٌ ظاهرٌ، فالجواب أن يقال: لا نسلم أنه نقض التوراة بهذا وأمثاله من سائر أحكامها، لكنه تممها بذلك. ألا ترى أن التوراة قالت: «لا تحث في يمينك» وأنت، بل كلُّ رشيديٍّ يجزم بأن هذا غيرُ كافٍ في سدِّ بابِ الحثِّ في اليمين. وذلك لأننا إذا فرضنا أن أحدَ اليهودِ حلفَ بالله تعالى قائلاً: إنه لا بدُّ وأن يقتلَ يهودياً آخرَ لغرضٍ له معه، فلا يخلو من هذا المفروض: إما يبرئ القسمَ هرباً من مخالفةِ التوراة بالحثِّ في اليمين، أو يتمُّ ما نوى من الغرضِ، وإذ ذلك فيكون قد خالفَ التوراة بالقتلِ. فعلى التقديرين لا ينفكُ عن مخالفةِ التوراة؛ فيلزم أن يكون تجنُّبُ مخالفتها مودياً إلى مخالفتها. فأزال السيدُّ المسيح هذا المحذور، وتممَّ هذا التفصان بقوله: «لا تحلفوا» بته!

ج - وأما فريضة السبت فلما كانت مبنية على وصف الله تعالى بما لا يجوز وصفه به، وهو قولُ التوراة: «وفي السبت استراح الله من تعبِهِ»، فلا شك أن التعب لا يصدق إلا على جسمٍ حيوانيٍّ يتحرك حركةً تفوق طاقته. وإله الآلهة وربُّ الأربابِ منزَّهٌ عن هذا الوصف. وفيه مع ذلك تكيفُ النفوسِ بالجهلِ المركَّبِ الذي لا يرجى فلاحٌ صاحبه. وهذان المحذورانِ نقضٌ عظيمٌ تممه السيدُّ المسيحُ بتزويده الله عن هذه الصفةِ وتطهيرِ النفسِ عن هذا الاعتقادِ الفاسدِ، فحلَّ السبت لهذا الغرضِ.

د - ومعلومٌ أن المصنِّفَ نقلَ في هذا الكتابِ عن بعضِ فضلاء اليهودِ في أثناءِ جوابِ الاعتراضِ الرابعِ ما حكايته: «فإنها - يعني شريعة التوراة

- نَزَلَتْ ، وَالسَّيْرَةُ الْمَشْهُورَةُ الْمَأْلُوقَةُ هِيَ تَقْرِيبُ أَنْوَاعِ الْحَيَوَانِ فِي هَيَاكِلِ الصُّورِ ، وَالسُّجُودُ لَهَا ، وَالتَّبْخِيرُ بَيْنَ يَدَيْهَا . « هَذَا حِكَايَةُ كَلَامِهِ ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى تَقْصِيرِ شَرِيعَةِ التُّورَةِ عَنْ نَقْلِ النَّاسِ بِالْكَلْبِيِّ عَنْ هَذِهِ الْفَرِيضَةِ الْقَدِيرَةِ الْحَسِيَسَةِ . وَهَذَا نَقْصٌ تَمَمَهُ السَّيِّدُ الْمَسِيحُ ، بِنَسْخِ هَذِهِ الْفَرِيضَةِ أَصْلًا وَرَأْسًا . وَفِي الَّذِي ذَكَرْنَاهُ هَهُنَا كِفَايَةً لِلْفَطْنِ الْمُنْصِفِ ، فِي تَصْديقِ قَوْلِ السَّيِّدِ الْمَسِيحِ مِنْهُ السَّلَامُ .

وَأَيْضًا فَالسَّيِّدُ الْمَسِيحُ لَمْ يَنْقُضْ شَيْئًا مِنْ أَحْكَامِ التُّورَةِ ، بَلْ عَمِلَ بِجَمِيعِ فَرَائِضِهَا إِلَى آخِرِ وَقْتٍ ، كَمَا بَيَّنَّا ، فَهُوَ مُتَمِّمٌ لَهَا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ أَيْضًا .

ماشية ١٢٦ . هَذَا الْكَلَامُ لَيْسَ بِصَحِيحٍ ، وَقَدْ ذَكَرْنَا جَوَابَهُ فِي مَوْضِعِهِ ، فَتَأَمَّلْهُ مِنْ هُنَاكَ . (٣٩) وَأَنَا أَتَعَجَّبُ مِنَ الْمُصَنِّفِ كَيْفَ يَدَّعِي هَذِهِ الدَّعَاوِي الْفَاسِدَةَ مِنْ غَيْرِ اسْتِحْيَاءٍ ، مَعَ عِلْمِهِ وَعِلْمِ كُلِّ يَهُودِيٍّ أَنَّ السَّيِّدَ الْمَسِيحَ حَلَّ السَّبْتِ . وَلَأَجْلِ ذَلِكَ شَنَّ الْيَهُودُ عَلَيْهِ فِي أَكْثَرِ الْأَمْرِ .

ولقاتل أن يقول

إِنَّا لَا نَسْلِمُ أَنَّهُ وَعَدَ فِي التُّورَةِ بِمَجِيءِ الْمَسِيحِ . فَإِنْ قَالُوا إِنَّ يَعْقُوبَ لَمَّا جَمَعَ أَوْلَادَهُ وَأَخْبَرَهُمْ بِمَا يَكُونُ مِنْهُمْ فِي آخِرِ الزَّمَانِ ، فَلَمَّا بَلَغَ إِلَى يَهُودَا قَالَ ، فِي جُمْلَةِ قَوْلِهِ لَهُ ، - لَا يَزُولُ الْقَضِيبُ مِنْ يَهُودَا أَوْ الرَّاسِمُ مِنْ بَيْنِ أَقْدَامِهِ إِلَى أَنْ يَجِيءَ الَّذِي لَهُ الْأَمْرُ وَلَهُ تَجْتَمِعُ الشُّعُوبُ - ، وَالْمُرَادُ بِالْقَضِيبِ قَضِيبُ الْمَلِكِ وَبِالرَّاسِمِ النَّبِيِّ ؛ وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَمَّا ظَهَرَ الْمَسِيحُ بَطَلَ الْمَلِكُ مِنْهُمْ وَانْقَطَعَتِ النَّبُوءَةُ عَنْهُمْ ، وَجَاءَ فِي مَوْضِعِ آخِرِ مِنَ التُّورَةِ أَنْ - نَبِيًّا أَقِيمَ لَهُمْ مِنْ وَسْطِ إِخْوَانِهِمْ مِثْلَكَ ، بِهِ فليؤمّنوا ، - وَالضَّمِيرُ فِي - لَهُمْ - عَالِدٌ إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ وَفِي - مِثْلَكَ -